المجلة العربية، جامعة داكا
المجلد السادس عشر، يونيو ٢٠١٨ م

الفصاحة الواضحة فى كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم : دراسة تطبيقية

محمد سليمان *

Abstract

`Alfasaha`means clearness of description. When a child expresses his own words fluently by his tongue and we understand the meaning of his voice, then an Arabian says " أفْصَحَ الصبيُّ في مَنْطِقِه إفْصاحاً إذا فَهِمْتَ ما يقول في أوّل ما يتكلم". A man is called a rhetorician when he has capability of good presentation by meaningful and clear words. In technical terms of rhetorical science 'Alfasaha' is the good virtue of words. 'Albalaga' means to make one understand by excellent presentation with meaningful words according to the environment towards mankind. The all rhetoricians of the whole Arab were surprised by the rhetorical functions of the Holy Qur'an. In the same way, they were amazed and astonished by the Hadith-saying of prophet (SM) after observing his rhetorical skills and fluency. We get highly rhetorical excellence in his every single word. When he gave speeches in front of the Quraish nation, they would listen to him motionlessly. Though they had strong literary, rhetoric and powerful poetic knowledge, they were not able to win on him. They surrendered to his presentational beauties with appropriate words, accurate meanings and giving speech according to audience demand and circumstances. No researcher was found in the world who denied or would deny that our prophet (SM) is the greatest rhetorician of all creation. He was used to talking in brief which would signify a wide range of meaning. He was an incomparable orator. Our prophet (SM) says "I am the best of Arab in language eloquence because I was born in the Quraish tribe and I had been sucked in tribe sa`d". Those were the ways and reasons that confirmed his superiority in Arabic language throughout the ages.

التقديم

* محاضر، القسم العربي، جامعة شيتاغونغ

الفصاحة الواضحة فى كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم: دراسة تطبيقية

الحمد لله رب العالمين والصلواة والسلام على حبيبه محمدن الذى أرسله رحمة للعالمين وعلى اله وصحبه اجمعين اما بعد

فإن العرب كانت لهم منزلة رفيعة ورتبة سامية فى الأدب والثقافة ولو كانوا مستغرقين في ظلمة الجاهلية. ولهم ميزة خاصة في الفصاحة والبلاغة حتى كانوا يفتخرون بهما في أدبهم الجاهلي الذى هو ترجمان القوم والملة. كانت تظهر فيه مؤهلاتهم الفصاحية والبلاغية وهما معياران هامان لتقويم اللغة العربية وأدبها. إنَّ لكل أدب فصاحة وبلاغة. لا يبلغ الأدب إلى غاية الحسن والجمال إلا بهما. ففصاحة الأدب العربي وبلاغته تعدان من الطراز الرفيع فى العالم كله. إن لم ير أثرهما في الأدب يكون عارياً عن الحلية المتلذذة. وإن القرآن الكريم هو المصدر الاول للأدب العربي الإسلامي الذى هو مملوء بالفصاحة والبلاغة. تحدى فصحاء العرب وبلغائهم بفصاحته الرائعة وببلاغته العجيبة. وأن الحديث الشريف هو كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهو مصدر ثان للأدب العربي الإسلامي الموفور بالأساليب الفصاحية والبلاغية أيضاً. فإن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم خير الخلق من كل الناحية. إنه أكمل الإنسان فى خلق الرحمن، وأفصحهم من حيث اللسان، وأبلغهم فى البيان. ليس كمثله أحد في الإنس والجان. وهو من بنى عدنان .ونال التفوق خاصة على أجيال العرب وعامة على الأغيار من حيث الفصاحة والبلاغة كما نرى فى قوله السلام "أنا أفصح العرب"[1]، "بعثت بجوامع الكلم"[2]. إنما القرآن هو كلام الرحمن أنزله موشحا بالفصاحة والبلاغة. أفحم فصحاء العرب وبلغائهم بأساليب البيان. بلَّغه النبي صلى الله عليه وسلم إلى الانس والجان. وأوضح أحكامه بفصيح لسانه وبليغ بيانه. فإن كلامه صلى الله عليه وسلم أفصح الكلام وأبلغه بعد القرآن إطلاقاً.

قبل بداية المادة الأصلية نحن نتوجه أولاً إلى معرفة الفصاحة والبلاغة لغةً واصطلاحاً بحيث يتضح لنا المرام إيضاحاً تاما.

الفصاحة لغةً

الفَصاحةُ البَيان.كما يقال فَصُحَ الرجلُ فَصاحة فهو فَصِيح من قوم فُصَحاء وكذلك الصبي يقال أَفْصَحَ الصبيُّ في مَنْطِقِه إفْصاحاً إذا فَهِمْتَ ما يقول في أوّل ما يتكلم وأَفْصَحَ الأَعْتَمُ إذا فهمت كلامه بعد غُثْمَتِه [3]

الفصاحة اصطلاحاً

الفصاحة خاصة تقع صفة للمفرد فيقال: كلمة فصيحة ولا يقال كلمة بليغة[4]. قال عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ذكر علماء البلاغة أنَّ الفصاحة تأتي وصفاً للكلمة الواحدة، ووصْفاً للكلام، ووصْفاً للمتكلّم، فيقال: كلمةٌ فصيحة، وكلامٌ فصيحٌ، ومتكلّم فصيح[5] أمّا الكلمة الفصيحة: وهي الكلمة العربية التي تَخْلُو من أربعة عيوب: التنافر، والغرابة، ومُخَالفة القياس، وكراهة السَّمع لها.كما نرى فى شعر إمرء القيس :

غَدَائِرُهُ مُسْتَشْزِرَاتٌ إِلَى الْعُلاَ تَضِلُّ الْمَدَارِي فِي مُتُنَّى وَمُرْسَلِ[6]

فأقول إنّ الفصاحة في الحقيقة هي صفة الكلمات العربية التي تحرسها من العيوب الضارة على ألسنة المتكلم من التنافر، والغرابة، ومُخَالفة القياس، وكراهة السَّمع لها. فالكلام الفصيح يتكون بالكلمات الفصيحة خالياً من ضعف التأليف والتعقيد. فالمتكلم الفصيح يهتم بهذه العيوب التي يضر بها الكلام الفصيح.

البلاغة لغة

البلاغة تستعمل في اللغة على معان شتى:

1. الوصول: كما يقال بَلَغْتَ المكان بُلوغاً:وصلت إليه

2 بالإدراك كما يقال بَلَغَ الغلام أي أدرك.

3. الإبْلاغُ أي الإيصالُ،

4. التَبْليغُ،

5. الكفايةُ. وبَلُغَ الرجلُ بالضم، أي صار بَلِيغاً.[7] وأصل مادّة الكلمة في اللّغة تدور حول وُصُول الشيء إلى غايته ونهايته، أو إيصال الشيء إلى غايته ونهايته كما يقال بلغَ الشّيءُ يَبْلُغُ بُلوغاً وبلاغاً، إذا وصل وانتهى إلى غايته ويقال في العرب: أبلَغْتُ الشّيءَ إبلاغاً وبَلاَغاً، وبلَّغْتُهُ تَبْليغاً، إذا أوصلته إلى غايته ونهايته [8]

البلاغة اصطلاحاً

البلاغة عند أهل اللّغة هي حُسْنُ الكلام مع فصاحته وأدائه لغاية المعنى المراد. والرجل البليغ هو من كان فصيحاً حسَنَ الكلام يَبْلُغُ بعبارة لسانه غاية المعاني التي في نفسه، ممّا يُريد التعبير عنه وتوصيلَهُ لمن يُريد إبلاغه ما في نفسه.[9]

فأقول إنما البلاغة في الحقيقة هي الملكة المكنونة في الانسان التي تعصمه من الخطاء والنسيان عند المكالمة لمقتضي الحال مع فصاحة كلماته. فالبليغ هو الرجل الذي يقدر على إيراد الكلام حسب الموافق بالكلمات الفصيحة بحيث يطول كلامه حينما تطلب البيئة الإطناب وهكذا يقصر كلامه حينما تطلب الإيجاز. فكل بليغ يكون فصيحا البتة وكل فصيح ليس له شرط أن يكون بليغاً.

فثبت من البحث المذكور أن الفصاحة أعم والبلاغة أخص دائماً. إنما الشرط للكلام البليغ لا بد له أن يكون ألفاظه فصيحة مع مطابقته لمقتضى الحال. فالكلام الفصيح لا يكون كلاماً بليغاً حتَّى يكون مطابقاً لمقتضى حال المخاطب به.[10]

أفصح الخلق وأبلغهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم

أفصحُ الخلقِ على الإطلاق سيِّدُنا ومولانا رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم قال صلّى الله عليه وسلّم: " أنا أفصحُ العَرَب " ونُقِل عن أبي الخطَّاب بن دِحْية : اعْلَمْ أن الله تعالى لما وضع رسولَه صلّى الله عليه وسلّم مَوْضِعَ البلاغ من وَحْيه ونَصَبَه مَنْصِبَ البيانِ لدينه اختار له من اللغاتِ أعرَبَها ومن الألسن أفصحها وأبيَنَها ثمَّ أمدَّه بجوامِع الكَلِم[11] قيل: إن معاوية سأل عمرو بن العاص من أبلغ الناس؟ فقال: أقلهم لفظاً، وأسهلهم معنى، وأحسنهم بديهة. ولو لم يكن في ذلك الفخر الكامل لما خص به سيد العرب والعجم صلى الله عليه وسلم وافتخر به حيث يقول: " نصرت بالرعب وأوتيت جوامع الكلم ". وذلك أنه كان عليه الصلاة والسلام يتلفظ باللفظ اليسير الدال على المعاني الكثيرة.[12]

قال إبن عبد البر فى "الاستذكار": "وكان رسول الله أميرهم بفضل البلاغة لبلاغته وفصاحته وكان قد أوتي جوامع الكلم"[13]. قال القاضي عياض في كتابه "الشفاء بتعريف حقوق المصطفى": "وفصاحته المعلومة وجوامع كلمه وحكمه المأثورة فقد ألف الناس فيها الدواوين وجمعت في ألفاظها ومعانيها الكتب، ومنها مالا يوازى فصاحة ولا يبارى بلاغة".[14]

قال الأديب البليغ أبو عمرو عثمان بن بحر الجاحظ فى البيان والتبيين:

"وهو الكلام الذي قلّ عدد حروفه وكثر عدد معانيه، وجلّ عن الصنعة، ونزّه عن التكلف، وكان كما قال الله تبارك وتعالى: قل يا محمد: وَما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ فكيف وقد عاب التشديق، وجانب أصحاب التقعيب، واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السوقي، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة، وشيد بالتأييد، ويسر بالتوفيق. وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة، وغشاه بالقبول وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الأفهام، وقلة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته. لم تسقط له كلمة، ولا زلت به قدم، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يبدّ الخطب الطوال بالكلام القصار، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتج إلا بالصدق، ولا يطلب الفلج إلا بالحق، ولا يستعين بالخلابة، ولا يستعمل المواربة، ولا يهمز ولا يلمز، ولا يبطىء ولا

يعجل، ولا يسهب ولا يحصر. ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا، ولا أقصد لفظا، ولا أعدل وزنا، ولا أجمل مذهبا، ولا أكرم مطلبا، ولا أحسن موقعا، ولا أسهل مخرجا، ولا أفصح معنى، ولا أبين في فحوى، من كلامه صلّى الله عليه وسلّم كثيرا".[15]

لما جعل الله تعالى الحبيب صلى الله عليه وسلم أفصح العرب

إذا نتفحص عن أسباب فصاحة النبي صلى الله عليه وسلم لاحت لنا هذه الحقيقة بأن الله تبارك وتعالى أرسله إلى قوم يقادون من ألسنتهم، لهم الدرجات الرفيعة في ميدان الفصاحة والبلاغة، وكان فيهم الفصيح والبليغ. ففضل الله تبارك وتعالى حبيبه صلى الله عليه وسلم عليهم من حيث الفصاحة والبلاغة إعجازاً على الكفار وتفضيلاً عليهم وتبليغاً للدعوة.

1.إعجازاً على الكفار

إنما الكلام النبوي الكريم معجز مثل القرآن العظيم. فإنه أيضاً من كلام الرحمان كما قال الله تبارك وتعالى في الفرقان "وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5)"[16] كما كان الكفار عجزوا لدي فصاحة القرآن وبلاغته هكذا عنوا وجوههم صاغرين أمام فصاحة الأحاديث النبوية صلى الله عليه وسلم وبلاغتها حتى صاروا عاجزين عن الإتيان بمثلهما. لأن منبعهما واحد في الحقيقة.

2.تفضيلاً عليهم

إنَّ سنة الله تعالى أن يميز المرسلين عن أهالى عصورهم وأن يفضلهم على أممهم بالاوصاف المجرى بينهم. فمن ثم رفع الله عز و جل رتبة حبيبه صلى الله عليه وسلم كاملا ومكملاً. لا نقص فيه ولا عيوب. فكانت البيئة الأدبية فى الجاهلية ممتعة بالفصاحة والبلاغة حتى تنافس الفصحاء والبلغاء فى سوق عكاظ. وكانوا يفتخرون بفصاحة لسانهم وببلاغة بيانهم على أغيارهم، ولكنهم لما سمعوا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم المتزين بالفصاحة والبلاغة تعجبوا غاية العجب واعتقدوا على أنه صلى الله عليه وسلم نبي حق مرسل من الحق. ومالوا إليه بقلوبهم ذرافات ووحدانا حتى لجئوا تحت لوائه داخلين في الإسلام أفواجاً. فلم يدانوه أحد من فصحاء العرب وبلغائهم وإن كانوا مهذبين فى الكلام ومحذقين به لعدم إمكان التوازن بينهم وبين النبى صلى الله عليه وسلم. مع ذلك لا يسلمون من عيوب الاستكراه والزلل والاضطراب، ومن حذف في موضع إطناب، وإطناب في موضع، ومن كلمة غيرها أليق، ومعنى غيره أرد، ثم هم في باب المعاني ليس لهم إلا حكمة التجربة.[17]

2.تبليغاً لدين الله سهلةً

إن الله جل وعلا فضَّل النبى صلى الله عليه وسلم على العالمين جميعاً. ليس كمثله أحد فى الخلق من كل الناحية حتى فى الحركة والسكنة والتكلم بالفصاحة والبلاغة فتعجبت قريش بلغته الفصيحة وبخطبه البليغة، وبحكمته البالغة وبموعظته الحسنة.كما أمره تبارك وتعالى للتبليغ بهما "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ"[18] إنَّ ألفاظ رسول الله صلى الله عليه وسلم مملوئة بالحكمة والموعظةكما أشار إليه مصطفى صادق الرافعى: "إن خرجت في الموعظة قلت أنين من فؤاد مقروح، وإن راعت بالحكمة قلت صورة بشرية من الروح في منزع يلين فينفر بالدموع ويشتد فينزو بالدماء وإن أراك القرآن أنه خطاب السماء للأرض أراك هذا أنه كلام الأرض بعد السماء".[19]

وسائل الحصول على الفصاحة والبلاغة

1.الموهوب الإلهي

إن ملكة فصاحته وقوة خذاقته صلى الله عليه وسلم كانت موهوبة إلهية. ما كان له صلى الله عليه وسلم مُعَلِّمًا بل أن النبي صلى الله عليه وسلم أُرسل إلى كافة الناس معلماً وجوامعاً للكلم كما قال النبي صلى الله عليه وسلم إِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّمًا [20] " نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ وَأُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ[21] " وقال أيضاً "إن الله أدبني فأحسن تأديبي "،[22]

أما السر الأعظم فى بلاغة الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم فهو التدبير الإلهى لأن يكون الحبيب أفصح العرب كما نرى فى قوله تعالى "وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا"(النساء: 113) وقد امتن الله على رسوله الأعظم بإنزال القرآن الكريم عليه وبإعطاء الحكمة وبالعلوم التي لم يكن يدري عنها شيئًا، تدل عليه هذه الآية أن الله عز وجل ألهم رسوله روائع البيان وخصه بالمثل الأعلى في فصاحة اللسان وكمال البيان. فكيف لايكون أفصح خلق الله تعالى وقد أعطاه الله تعالى لساناً جامعاً للمعاني الكثيرة فى الألفاظ اليسيرة وقال وهو على المنبر " يا أيها الناس إني قد أعطيت جوامع الكلم وخواتيمه أختصر لي إختصاراً، وسأله عمر رضى الله عن سر فصاحته بقوله: يا نبي الله ما لك أفصحنا ولم تخرج من بين أظهرنا ؟ فقال محمد صلى الله عليه وسلم كانت لغة إسماعيل قد درست فجاءنى بها جبريل فحفظتها."[23]

2.الإسترضاع من بني سعد

قال النبي صلى الله عليه وسلم"أنا أفصح العرب غير أني من قريش واسترضعت في بني سعد بن بكر"[24].ولما ردته حليمة السعدية إلى مكة نظر إليه عبد المطلب وقد نما نمو الهلال، وهو يتكلم بفصاحة، فامتلأ سروراً وقال: جمال قريش، وفصاحة سعد، وحلاوة يثرب. وكان شبيب بن شيبة من أفصح الناس وهو من بني سعد.كانت عادة العرب بأنهم يرسلون أولادهم إلى أفصح القبائل بني سعد للاسترضاع لبناء حياتهم باللغة الفصيحة. فعبد المطلب أرسله صلى الله عليه وسلم إلى تلك القبيلة لحصول الملكة اللسانية.

3.نشأته فى خير البيئة

وقد نشأ النبي صلى الله عليه وسلم وتقلب في أفصح القبائل وأخلصها منطقًا، وأعذبها بيانًا، فكان مولده في بني هاشم، وأخواله في بني زهرة، ورضاعه في سعد بن بكر، ومنشؤه في قريش، ومتزوجه في بني أسد، ومهاجرته إلى بني عمرو، وهم الأوس والخزرج من الأنصار، لم يخرج عن هؤلاء في النشأة واللغة؛ ولقد كان في قريش وبني سعد وحدهم ما يقوم بالعرب جملة.[25]

مزايا البيان النبوي صلى الله عليه وسلم

إن البيان النبوي صلى الله عليه وسلم تخصص من الأغيار كما أشار إليه الأديب الماهر مصطفى صادق الرافعي بأسباب طبيعية فيه فهو من جهة اللغة مسدد اللفظ، محكم الوضع جزل التركيب، متناسب الأجزاء في تأليف الكلمات، فخم الجملة، واضح الصلة بين اللفظ ومعناه ثم لا ترى فيه حرفًا مضطربًا، ولا لفظة مستدعاة لمعناها ومستكرهة عليه، ولا كلمة غيرها أتم منها. وهو من جهة البيان تراه حسن المغزى بين الجملة، واضح التفصيل، ظاهر الحدود، جيد الوصف، متمكن المعنى، واسع الحيلة في تصريفه، بديع الإشارة، غريب اللمحة، ناصع البيان ثم لا ترى فيه إحالة ولا استكراهًا، ولا ترى اضطرابا ولاخطلا ولا استعانة من عجز ولا توسعًا من ضيق ولا ضعفا في وجه من الوجوه. أضف إلى هذا سمو المعنى وفصل الخطاب والتصرف في كل طبقات الكلام، ليجتمع من هذا وما إليه نسق في البلاغة يجمع الخالص من سر اللغة ومن البيان ومن الحكمة.[26]

كان كلام النبي عليه أفضل الصلواة والسلام بين الإيجاز المخل والإطناب الممل. هذا من أروع الأساليب الفصاحية والبلاغية. لايتكلم إلاّ فصلاً لا نزراً ولا هزراً . وكان الذي يستمع إليه يعد كلامه عداً، كان هادئاً يلقي الكلام كلمة كلمة. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : ما سمعت

كلمة عربية من العرب إلا وقد سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسمعته يقول : مات حتف أنفه ، وما سمعتها من عربي قبله.[27]

كان كلامه صلى الله عليه وسلم بينا لا فضول فيه ولا تقصير يحفظه السامعون سهلةً كما قالت عائشة رضى الله عنها: "ما كان رسول الله يسرد كسردكم هذا ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل يحفظها من جلس إليه". وروي عنها أيضاً: أنه كان يحدث حديثاً لو عده العاد لأحصاه وقال أنس: "كان إذا تكلم بكلمة ردّها ثلاثا وقال له أصحابه: مارأينا أفصح منك، فقال: إن الله لم يجعلني لحاناً، إختار لى خير الكلام القرآن". وكان النبى صلى الله عليه وسلم يمدح الفصاحة ويكره اللحن ولذالك لما سأله العباس رضى الله عنه ما الجمال؟ قال: اللسان وفى رواية أنه سأله ما الجمال في الرجل؟ فقال فصاحة لسانه وقال رحم الله إمرءأ أصلح من لسانه،[28]

قد سأل هند بن أبى هالة ربيب النبي عليه الصلاة والسلام من خديجة أم المؤمنين، وكان هند رجلا وصافا، سأله حب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: قلت صف لى منطقه، قال: "كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم متواصل الأحزان، دائم الفكر ليس له راحة، ولا يتكلم فى غير حاجة، طويل السكوت، يفتتح الكلام ويختتمه بأشداقه (أى يستعمل جميع فمه عند الكلام ،فلا يتكلم بطرف اللسان ،بل يقبل على القول إقبال المهتم به). ويتكلم بجوامع الكلم، فضلا، لا فضول فيه، ولا تقصير، لا يذم شيئاً ولا يمدحه، ولا يقام لغضبه إذا تعرض أحد للحق بشيء حتى ينتصر له، إذا أشار فبكفه كلها، وإذا تعجب قلبها، وإذا تحدث اتصل بها فضرب بإبهامه اليمنى راحته اليسرى، وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غض طرفه، جل ضحكه التبسم، ويفتر عن مثل حب الغمام".[29]

تحليل وجوه الفصاحة والبلاغة في الأحاديث النبوية

إن الباحثين فى كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم مجبورون على إقرار هذه الحقيقة بأن جميع الأحاديث الشريفة متصف بالفصاحة والبلاغة طبيعيةً. أقدم بعضاً من الاحاديث النبوية نموذجاً

وَعَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ فِتَنٌ كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ فِيهَا أَقْوَامٌ دِينَهُمْ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا قَلِيلٍ [30]

المناقشة البلاغية

1**"بين يدي الساعة"** شبه الساعة برجل وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو اليد على سبيل الاستعارة المكنية بجامع القرب بين

كل منهما فاليد قريبة من الرجل والفتن قريبة من الساعة. هذه الاستعارة استعارة مكنية.

2**"فتن كقطع الليل المظلم"** فيه تشبيه مرسلٌ مفصلٌ، لأن أداة التشبيه قد ذكرت فيه وهي الكاف فهو مرسل من هذا الوجه، ومفصل لأن وجه الشبه وهو الظلمة قد ذكر فيه وقد تمت فيه الأركان.

3" **يصْبحُ ويمسي"** وفي قوله **"مؤمنًا وكافرًا"** تقابل جميل، وهذا ما يسمى في علم البلاغة الطباق، كقوله تعالى: وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ (الكهف: 18)، والطباق هو أن يجمع المتكلم بين لفظين متقابلين وقد يكون الطباق في الفعل كما في الأول: يصبح ويمسي وقد يكون في الاسم كما في قوله: مؤمنًا وكافرًا وقد يكون في الحرف كقوله تعالى:وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ (البقرة: 229).

4**" يبيع دينه بعرض من الدنيا "** جملة خبرية يقصد منها التحذير والتخويف.

عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال يا أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَاسْأَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ ، ثُمَّ قَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ: اللهُمَّ، مُنْزِلَ الْكِتَابِ، وَمُجْرِيَ السَّحَابِ، وَهَازِمَ الْأَحْزَابِ، اهْزِمْهُمْ، وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ [31]

الوجوه البلاغية

1**"الجنة تحت ظلال السيوف"** قال القرطبي: هذا من الكلام النفيس البديع الذي جمع جزالة اللفظ وعذوبته وحسن استعارته وشمول المعاني الكثيرة مع الألفاظ الوجيزة بحيث تعجز الفصحاء اللسن البلغاء المصاقع عن الإتيان بنظيره وشكله، فإنه استفيد منه مع وجازته الحض على الجهاد والإخبار عن ثوابه، إلى أن قال: وهذا كما جاء في الحديث الشريف الجنة تحت أقدام الأمهات، ففي التعبير استعارة تصريحية فالمجاهد في سبيل الله يدخل الجنة بسبب جهاده وصبره على لقاء العدو وضربه بالسيف حتى كأن السيوف أصبح لها من كثرتها ظلال تظلل الضاربين.

2**"منزل الكتاب، مجري السحاب، هازم الأحزاب"** فيه من علم البديع ما يسمى بالسجع، وهو تواطُؤُ الفاصلتين من النَّثر على حرف واحد، وهو في النثر كالقافية في الشعر، وأفضل السجع ما كانت فِقَرَاتُه متساويات، ولا يستحسن السجع إلا إذا جاء عفوًا.

أنا أفصح العرب بيد أنني من قريش

أنا أفصح العرب بيد أنني (إلا) أنني ـ وكأننا توهمنا أنه سيذم نفسه، قال: بيد أنني من قريش . وقريش أفصح قبيلة في العرب هذا الاسلوب أسلوب رائع سماه البلغاء تأكيد المدح بما يشبه الذم. هذا النوع من أنواع ابن المعتز، وهو أن ينفي صفة ذم ثم يستثني صفة مدح، كما يقال: لا عيب في زيد سوى أنه يكرم الضيف. نحو قول النابغة الذبياني:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب[32]

فجعل فلول السيف عيباً، وهو أوكد في المدح. لأن فلول السيف يدل على كثرة القتال وكثرة القتال تدل على الشجاعة والبسالة.

هكذا كل من الاحاديث النبوية متوشح بالفصاحة الثمينة والبلاغة القيمة فازدهرت به أمثال العرب وحكمها. كأن الدرر المكنونة من اللغة العربية خرجت من فوه النبوة. ونالت اللغة العربية صورة جديدة بأثر الفصاحة التامة والبلاغة الكاملة لسيدنا محمد صلى الله عليه واله وسلم. لما لا يكون كلامه عليه الصلواة والسلام ضرباً للأمثال والحكم ؟ فإنه صلى الله عليه وسلم فصيح اللسان وبليغ البيان بأثر القرآن الذى هو كلام الرحمن. فلا مثيل له ولا نظير فى الانس والجان. لا يخلو كلامه من زينة البيان. فإن الله تعالى علمه البيان وحفظه من الخطاء والنسيان. فبلغ أقصى الغايات فى الفصاحة والبلاغة اجتناباً عن جميع الأوصاف الرزيلة القبيحة.

فأقدم طائفة أخري لنيل البركة من كلام خير البرية عليه أفضل الصلواة والتحية

1.إنما الاعمال بالنيات وإنما لكل إمرء ما نوى:[33] فيه المساواة. أما المراد بالمساواة هي تأديةُ المعنى المراد بعبارة مساوية له بأن تكون الألفاظ على قدر المعاني، لا يزيد بعضها على بعض. فاستعمل النبي صلى الله عليه وسلم الألفاظ على قدر المعني،لم ينقص عنه ولم يزد عليه.

2.الحرب خدعة. لما اجتمعت الأحزاب على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الخندق، واشتد الأمر، واضطرب المسلمون، وعظم الخوف فجاء نعيم بن مسعود بن عامر الغطفاني إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله: إني قد أسلمت وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني بما شئت، فقال له رسول الله: خذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة .[34]

3.نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ[35]. تنبيه أمته على مقدار عظيم نعمة الله على عباده فى الصحة والكفاية؛ لأن المرء لا

يكون فارغًا حتى يكون مكيفًا مؤنة العيش فى الدنيا، فمن أنعم الله عليه بهما فليحذر أن يغبنهما.

4.إن من البيان لسحراً [36]. إنما النبي صلى الله عليه وسلم شبه البيان بالسحر مدحا له لأن معنى السحر الاستمالة. فكأنه غلب على القلوب بحسن كلامه فأعجب الناس به وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أميرهم بفضل البلاغة لبلاغته وفصاحته صلى الله عليه وسلم وكان قد أوتي جوامع الكلم فأعجبه ذلك القول فشبهه بالسحر لغلبة السحر على القلوب واستمالته لها. قال مصطفى صادق الرافعي" إن من البيان لسحرًا". جعل نوعًا من البيان هو السحر، لا البيان كله، فالحديث كالنص على ما تسميه الفلسفة الأوروبية اليوم "بالبيان الفني"، كأنه قال: إن من البيان فنًا هو سحر من عمل النفس في اللغة تغير به الأشياء، وله عجب السحر وتأثيره وتصرفه؛ وهذا معنى لم يتنبه إليه أحد، ولا يذكر معه كل ما قالوه في تفسير الحديث، وبذلك التأويل يكون هذا الحديث قد احتوى أسمى حقيقة فلسفية للفن [37]

5.إن من الشعر لحكمة[38] ليس كل شعر غواية بل منه ما يتضمن إقامة الحق والحث على الخير، كانت العرب تطلق اسم الحكمة على قوة جامعة لرزانة العقل والرأي وشرافة الخلق ومن هذا سموا الرجل العاقل المهذب حكيما.

6.لا يلدغ المؤمن من حجر مرتين. يضرب لمن أصيب ونكب مرّة بعد أخرى، يقال هذا من أمثال النبيّ صلّى الله عليه وسلم قاله لأبى عزّة الشاعر وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلم قد أسره يوم بدر فمنّ عليه وأطلقه ثم أتاه يوم أحد فأسره، فقال: منّ علىّ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلم «لا يلدغ المؤمن من جحر مرّتين» أى لو كنت مؤمنا لم تعد لقتالنا.[39]

7. الناس كأسنان المشط[40] أي متساوون في النّسب. فيه التشبيه المطلق، وهو أن يشبّه شيئا بشيء من غير عكس ولا تبديل. هذا تشبيه، الناس مشبه، أسنان المشط مشبه به، والكاف اداة التشبيه، ووجه الشبه محذوف وهو الاستواء أى: الناس كأسنان المشط في الاستواء. يضْرب بهَا المثل فى التساوى والتشاكل.

8.اليد العليا خير من اليد السفلى[41] حث النبي صلى الله عليه وسلم على الصدقة.فالعليا يد المعطِي والسفلى يَد السَّائِل.

9. الحياء خير كله[42] الحياء زينة الحياة. فمن فاته يفعل ما يشاء. يضرب به المثل لمن لا حياء له.

10.سبقك بها عكاشة [43] يمثل بها كثيرا، . لمّا ذكر النبي صلى الله عليه وسلم الفائزين بالجنة بغير حساب، قام إليه عكاشة بن محصن رضي الله عنه، فقال: أمنهم أنا يا رسول الله! أو أدع الله أن يجعلني منهم؟ فقال: نعم! فقام رجل آخر فقال مثل ذلك، فقال صلى الله عليه وسلم: سبقك عكاشة. والحديث مشهور معروف ما فيه من المعنى. يضْرب لمن طلب شَيْئا وَقد سبق إِلَى طلبه غَيره.

11.الشتاء ربيع المؤمن قصر نهاره فصامه وطال ليله فقامه[44]. شبه النبي صلى الله عليه وسلم الشتاء بالربيع. فإن الربيع موسم جيد. تطيب فيه نفوس الناس لاحرارة كثيرة ولابردة شديدة. والشتاء يكون قصير النهار وطويل الليل. أما المؤمن إذا صام في الشتاء لا يتعبه الصوم بالعطش والجوع لكونه صغيراً ويجد فرصة العبادة في الليل لكونه طويلاً.

12. زر غباً تزدد حباً[45]. أي لا تواتر الزيّارة فتملّ. الغب في الزّيارة فمعناه الإبطاء و التّقليل على غير وقت معلوم. إن كثرة الزيارة تزيل المحبة بين الاقرباء.وتزيد بينهم الملال.

13.الذنب لا ينسى، والبر لا يبلى ، والديان لا يموت، اعمل ما شئت كما تدين تُدان[46] البرُّ أي الإحسان إلى الخلق والطاعة للحق لا يبلى أي لا يضيع، والإثم لا ينسى والمعنى: أنهما لا بد أن يذكرا في الدنيا والآخرة، ويجازى عليهما بالمثوبة الحسنى، أو بالعقوبة السوء. أي كما تفعل تجازى بفعلك وكما تفعل يفعل معك.

14. فضل العلم خير من فضل العمل[47] ذكر في "الفاضل" للمبرد أن زيد بن ثابت أتى عبد الله بن عباس فتلقّاه عبد الله، وأخذ بركاب بغلته حتى نزل عنها، فلامه زيد على ما فعله، فقال: كذا أمرنا رسول الله صلّى الله عليه أن نفعل بعلمائنا، فقال له زيد: ادن منّي، فدنا منه، فقبّل يده ثم قال: كذا أمرنا رسول الله صلّى الله عليه أن نفعل بأهل بيته.
وإنما سلك زيد في ذلك ما يروى أن رسول الله صلّى الله عليه قال:لا يحلّ لأحد أن يقبّل يد أحد إلّا يد عالم أو يد رجل من أهل بيتي . ويروى أنّه قال: إذا كان يوم القيامة قيل للعابد قم فادخل الجنّة، ويقال للعالم: قم فاشفع .وقال عليه السّلام: فضل العلم خير من فضل العمل. وقال الله جل ثناؤه: إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ فجعل عزّ اسمه العالمين بحدوده هم الخائفين من عقابه، وأولياءه وأهل طاعته.[48]

15. الدال على الخير كفاعله [49] عن أبي عمرو الشيباني عن أبي مسعود قال أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل فقال احملني فقال ما أجد ما أحملك ولكن ائت فلانا فليحملك فأتاه فحمله فأتى رسول الله صلى الله عليه

وسلم فقال قد حملني فقال الدال على الخير كفاعله.[50] هذا حثٌّ على الخير وتشبيهٌ لمن وطّأ الطريق إليه ودلّ الطالب عليه بمن تفرّد بفعله، واشتراك بين من دلّ وبين من قبل ليقع التعاطف، ويعمّ التلاطف، وليكونوا كنفس واحدة.

16.لا يشكر الله من لا يشكر الناس[51] معناه أن الله تعالى لا يقبل شكر العبد على إحسانه إليه إذا كان العبد لا يشكر إحسان الناس ويكفر أمرهم؛ لاتصال أحد الأمرين بالآخر، وقيل معناه: أن من كان عادته وطبعه كفران نعمة الناس وترك شكره لهم كان من عادته كفر نعمة الله عز وجل وترك الشكر له، وقيل معناه أن من لا يشكر الناس كان كمن لا يشكر الله عز وجل وأن شكره كما يقال لا يحبني من لا يحبك أي: أن محبتك مقرونة بمحبتي فمن أحبني يحبك، ومن لا يحبك فكأنه لم يحبني.

فلن يقدر أحد على أن يحصر كلامه فصاحة وبلاغة .بل كل ما خرج من اللسان النبوي صلى الله عليه وسلم فصيح و بليغ.فليس له مثيل ولا نظير في الخلق جميعا.

الخاتمة

فصفوة الكلام أنَّ الفصاحة هي زينة الألفاظ النبوية والبلاغة هي سر الكلام النبوى المطابق لمقتضى الحال. فالفصاحة والبلاغة متلازمتان بعضهما بعضا. إنهما موجودتان فى أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم تماماً. الذي لا شك فيه ولا إرتياب. لأن الله تعالى أرسله إلى الخلق بأفصح اللسان ألفاظاً وبأوضح الكلام بياناً. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتكلم والناس يستمعون إليه إصغاءً. فتأثروا به وتعجبوا حتى أحبوه حبا شديداً. فدخلوا فى الاسلام بدعوته الحكيمة وبتبليغه البليغ. فلا أفصح منه فى العرب ولا أبلغ. فإن كان فيهم الأفصح والأبلغ لما يلتفتون إليه ولا هم يستمعون. فدب نسيم الراحة والسلامة فى أرض مكة بأسوته الحسنة على أقل مدة بتبليغه الدين العظيم من الله الكريم بالحكمة والموعظة الحسنة المؤثرة المتوشحة بالفصاحة والبلاغة. والحمد لله رب العالمين والصلواة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وأصحابه أجمعين.

المراجع والمصادر

1. محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي الشافعي، شرح السنة (بيروت: المكتب الإسلامي،1983م)،ج_4،ص،202.
2. أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البُخاري، صحيح البُخارى (مكة: مكتبة النهضة الحديثة، 1377ه)، ج_4 ص،54.
3. ابن منظور، لسان العرب (بيروت: دار صادر، 2005م)، ج_2، ص، .544
4. جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة (بيروت: دار الجيل، 1949م)، ج_1 ص، 19.
5. عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ، البلاغة العربية (بيروت: الدار الشامية، 1996 م)، ج_1، ص، 111.

6. نفس المرجع ،112 .
٩. أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي ، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (بيروت: دار العلم للملايين، 1987 م)، ج_4، ص، 13.
٨. عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ، البلاغة العربية ، ج_1، ص، 128.
9. نفس المرجع.
١٥. المرجع السابق، ص، 131.
١١. الزَّبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس (بيروت: دارإحياءالتراث العربي، 1984م) ، ص، 11.
12. شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف (بيروت: عالم الكتب، 1419 هـ)، ص، 50.
١٥. ابن عبد البر القرطبي، الاستذكار (بيروت: دار الكتب العلمية، 2000م)، ج_8، ص، 558 .
١8. ابوالفضل عياض بن موسى ، الشفاء بتعريف حقوق المصطفى(عمان: دار الفيحاء 1407 هـ)، ج_1، ص، 173.
١٥. الجاحظ، البيان والتبيين (بيروت: دارمكتبة الهلال،1423هـ)، ج _2، ص، 13.
16. سورة النجم:3، 4، 5
١٩. مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب (بيروت: دار الكتاب العربي،1974م)، ج_2، ص،282.
18. سورة النحل (16) : آية .125
١٥. مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب ، ج_2، ص، 279.
20. أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ، سنن ابن ماجه (بيروت: دار الجيل، 1418هـ)،ج _1، ص،83.
٢١. مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري ، صحيح مسلم (بيروت: دار إحياء التراث العربي دت)، ج_1، ص، 372.
٢٢. المناوي القاهري ، فيض القدير شرح الجامع الصغير (مصر: المكتبة التجارية الكبرى، 1356ه)،ج_1،ص، 224.
23. السيد محمد علوى، محمدصلى الله عليه وسلم الانسان الكامل (جدة : وزارة الاعلام الداخلى،1990م)، ص، .51
24. أبو القاسم محمود بن عمرو الزمخشري، ربيع الأبرار ونصوص الأخيار (بيروت: مؤسسة الأعلمي،1412 هـ)، ج_5، ص، 201.
25. مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب (بيروت: دار الكتاب العربي، 1974م)، ج _2، ص، 285.
26. نفس المرجع، ج _2، ص ، 2 13.
27. http//www.nablusi3.com/cds/com-cd/05seera/5bl.exe
28. السيد محمد علوى، محمدصلى الله عليه وسلم الانسان الكامل ، ص، .52
29. http://www.mohamedalnabi.com/page.php?id=661
30. سليمان بن أحمد الطبراني، مسند الشاميين (بيروت: مؤسسة الرسالة 1984م)، ج _3، ص، 312.
31. مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري ، صحيح مسلم ، ج _3 ص ،1362.
أبو بكر عبد الرزاق، مصنف عبد الرزاق (بيروت: المكتب الإسلامي ، 1403ه)، ج_5، ص، 247.
32. ابن المعتز، البديع في البديع (بيروت: دار الجيل،1990م)، ص، 157.

٥٦. أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البُخاري، صحيح البُخارى ، ج _1 ص، 6.
٥٨. نفس المرجع، ج _ 4 ، ص،63.
35. نفس المرجع، ج _ 8 ، ص ،88.
36. نفس المرجع، ج-7، ص ، 138.
37. مصطفى صادق الرافعي، وحي القلم (بيروت: دار الكتب العلمية، 2000م)، ج _2، ص،15.
٥٨. أبو بكر البيهقي،السنن الصغير (باكستان:جامعة الدراسات الإسلامية،1989م)،ج-4، ص، 182.
39. أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (القاهرة: دار الكتب والوثاق القومية، 1423ه)، ج_3، ص، 58.
٨٥. أبو بشْر محمد بن أحمدالدولابي الرازي، الكنى والأسماء (بيروت: دار ابن حم،2000م)،ج _2، ص، 523.
٨٦. مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني، موطأ الإمام مالك (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1412هـ)، ج _ 2، ص، 177.
٨٧. أبو داود سليمان بن داود بن الجارود الطيالسي البصرى، مسند أبي داود الطيالسي (مصر: دار هجر،1999م)، ج _2، ص، .187
43. أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البُخاري، صحيح البُخارى (مكة: مكتبة النهضة الحديثة، 1377ه)، ج – 7 ص 126.
٨٨. أحمد بن الحسين أبو بكر البيهقي، السنن الكبرى (بيروت: دار الكتب العلمية، 2003م)،ج _ 4، ص، 489.
٨٩. أبو داود سليمان بن داود بن الجارود الطيالسي البصرى، مسند أبي داود الطيالسي (مصر: دار هجر،1999م)، ج _ 4، ص، 268.
٨٩. علي بن محمد الملا القاري، شرح مسند أبي حنيفة (بيروت: دار الكتب العلمية، 1985م،) ج _1، ص،194.
٨٩. أبو محمد عبد الله بن محمد الأصبهاني،كتاب الأمثال في الحديث النبوي (الهند: الدار السلفية 1987م)، ج _1، ص، 241.
٨٩. محمد بن يزيد المبرد، الفاضل (القاهرة: دار الكتب المصرية، 1421 هـ)، ص،5.
٨٩. أبو بكر أحمد بن عمرو البزار، مسند البزار (المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، 2009م)، ج_5، ص،150.
٩٥. ابن عساكر، معجم الشيوخ (دمشق: دار البشائر، 2000م)، ج
٩٥. أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البُخاري، الأدب المفرد ، (بيروت: دار البشائر الإسلامية، 1989م)، ج _ 1، ص، 85.